دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، ربیع ۱۳۹۲، العدد السابع عشر، صص۶۵- ۸۴

الوطنية والمقاومة عند نزار قبانی

سید حسین سیدی*

سکینة صارمی گروی**

الملخص

نزار قبانی شاعر الحب، المرأة و السیاسة، ولد فی دمشق(۱۹۲۳-۱۹۹۸). ابتکر لغه خاصه تتسم بصفاته وهی لغة لیست غریبة او تم استعارتها من لغات اخری. فهی نفسها التی یعجز العدید من الشعراء عن معالجتها ویرمونها بالصعوبة وعدم الانصیاع للغة الشعر ورغم کل الدراسات النقدیه تتجه لتسمیة شاعر الحب أو شاعر المرأة؛ وذلک لأنه کتب العدید من القصائد التی تخص المرأة والحب، لکنه مع ذلک یعد واحدا من أهم الشعراء العرب الذین عبروا عن الواقع العربی السیاسی والاجتماعی. قصائده السیاسیة تعکس الجانب السیاسی ویتجلی ذلک فی المرحلة، التی ثار فیها علی الأنظمة العربیة السائدة من خلال شعره. فی هذا البحث نعالج جانب السیاسة والمقاومة بالصور الشعریة.

الکلمات الدلیلیة: نزار قبانی، السیاسة، الادب العربی، المقاومة.

---

* عضو هیئة التدریس بجامعة الفردوسی فی مشهد(استاذ).

** طالبة الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة و آدابها بجامعة فردوسی S.saremi66@yahoo.com

الکاتب المسؤول: سکینه صارمی گروی

تاریخ الوصول: ۹۱/۵/۹ تاریخ القبول: ۹۱/۹/۲۵

المقدمة

تناولنا فی بحثنا هذا شاعرا کبیرا ومجیدا، شاعرا قد ظلمه التاریخ أیما ظلم. شاعرا جار علیه کل حکام العرب بسبب تعففه عن مدح أولئک النکرات. شاعرا سلطویا علیه کل امکانیاتهم الإعلامیه یشوهوا سمعته وذکره، شاعرا لاحقوه وطاردوه وطمسوا شعره وأرادوا أن یمیتوه لکن هل نستطیع أن نحجب ضوء الشمس بغربال؟! لم نجد شاعرا من شعراء العرب المعاصرین شغل الناس قراءة ونقدا مثل *نزار قبانی* شغلهم قدیما وحدیثا. شغلهم وهو شاعر الغزل والمرأة وشغلهم وهو شاعر السیاسة والمقاومة وکأنه یقول کما قال الشاعر العربی الکبیر *ابوالطیب المتنبی* فی الماضی:

أنام ملء جفونی عن شواردها ویسهر القوم جراها ویختصم

تغزل *نزار* بالمرأة فیما خجلت وأحجمت أن تعبر عنها خواطرها واحساس بجرأة متناهیة وصلت حد الفجر. ووصف احاسیس الرجل نحوها کما جمالها وزینتها وملابسها ومتعلقاتها وأشیاءها الصغیرة والکبیرة، وجعل عین القارئ تتلصلص علیها من ثقوب الباب فتراها کاسیة عاریة وتنصت علیها فی غفلة عنها، فسمع حدیثها وسرها وهمسها وآهاتها و عری حتی ما تخجل المرأة من اظهاره، مما لا یروق للکثیرین والکثیرات التعبیر عنه او حتی التلمیح به، وبدعوی تحریر المرأة استبعدها *نزار* لرغباته وشهواته ونزواته.

حیاة نزار قبانی

ولد فی دمشق فی ۲۱ آذر(مارس۱۹۲۳م). تلک الأم التی بتواضعها وطیبتها وتفانیها بذلت فی خدمة عائلتها(عکاری، ۲۰۰۲م: ۸۶)، تلک هی *فائزة القبانی* التی نشأت فی أفیاء روضة عائله دمشقیه مؤلفة من *معتز ورشید* و...(ابوشاهین، ۲۰۰۸م: ۱۰۴). درس فی هذه المدینة وتخرّج من کلیة الحقوق بالجامعة السوریة عام ۱۹۴۵م، والتحق بعد تخرّجه من الجامعة بوزارة الخارجیة السوریة، وشغل عدداً من المناصب الدبلوماسیة فی القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدرید، وبکین وبیروت. استقال من العمل الدبلوماسی فی ربیع عام ۱۹۶۶م، وأسس دارا للنشر باسمه، متفرّغا بذلک لقدره الوحید: الشعر. رکز فی بدایاته علی شعر الحب، وحاول أن یخرج علاقات الحب فی المجتمع العربی من مغائر القهر، والکبت، إلی ضوء الشمس، ومنحها العلنیة والشرعیة(مجله الکویت، العدد۱۷۹: ۲۰-۲۱).

كسر صورة المرأة الجارية، وحول جسد المرأة العربية من وليمة بدائية تستعمل فيها الأنياب والأظافر، الى وردة ... ونجمة ... وقصيدة. اخترع لنفسه لغة خاصة به، تقترب من لغة الحوار اليومى، واتجه بشعره إلى جميع طبقات الشعب العربى، كاسراً بذلك طبقية الشقافة، والاحتكارات الإيقاعية والبرجوازية للشعر، بحيث أصبح الشعر على يده، خبزاً يومياً، وقماشاً شعبياً يرتديه ۱۵۰ مليون عربى. اكثر الشعراء العرب شعبية، وشهرة، وانتشاراً وأكثر الشعراء العرب تأثيراً فى وجدان مواطنيه، واول من «امم» الشعر، وجعله حديقة عامة يدخلها جميع المواطنين، ومطراً يسقط على جميع النوافذ.

كتب الشعر وهو فى السادسة عشرة(۱۹۳۹م). ومنذ ذلک التاريخ وهو يقاتل حتى يصبح البحر اكثر زرقة، وعصافير الحرية أكثر تناسلاً، وقامة الانسان أكثر ارتفاعاً. تعتبر أمسياته الشعرية التى يقدمها فى كلّ الحدائق العربية من الظواهر الثقافية النادرة، كما تعتبر تأكيداً لموقع الشعر الخطير فى حياة العرب، وفى تشكيل وجدان الانسان العربى. انتقل شعره بعد حرب ۱۹۶۷م نقلة نوعية، من شعر الحب الى شعر السياسة، واستطاع منذ ذلک الحين أن يمسک الوردة والمسدس بيد واحدة، ويرسم بصدق كل الحرائق والزلازل والأعاصير، التى تعصف بالوطن العربى(فاضل، ۲۰۰۰م: ۱۳۸-۱۳۹).

أصدر ۳۵ مجموعة شعرية بدءً من مجموعته الاولى «قالت لى السمراء» ۱۹۴۴م حتى مجموعته الأخيرة «تزوجتک ايتها الحرية» عام ۱۹۸۸م. أهم قصائده التى احدثت خضّة فى المجتمع العربى وأثارت غضب المحافظين هى «خبز، وحشيش، وقمر» التى كتبها فى لندن عام ۱۹۵۴م، وناقشها النوّاب السلفيون فى البرلمان السورى وطالبوا بمحاكمة الشاعر وطرده من السلک الدبلوماسى. القصيدة الثانية هى «هوامش على دفتر النكسة» ۱۹۶۷م، التى كتبها فى أعقاب حرب عام ۱۹۶۷م، ومارس فيها نقداً سياسياً جارحاً للأخطاء السياسية والاستراتيجية والنفسية العربية، ممّا أثار عليه غضب اليمين والشمال معاً. خطابه الشعرى، سواء العاطفى منه أو السياسى، يتميّز بالصدق والمنطق والتوتر العالمى، و أهم ما فيه كشاعر انه لايقسم الكلمة إلى نصفين، ولا الحقيقة الى نصفين. كنّس ألوف الخرافات و الاكاذيب التى تستوطن رأس الانسان العربى، و قاتل كل ملوک الغبار ورموز القهر، ولم يتزوج من كل نساء العالم سوى امرأة واحدة هى الحرية(مجلة الكويت، العدد۱۷۹: ۲۸).

ترجم المستشرق الإسبانی *مارتینت مونتافیش* شعره الی الاسبانیة، وأصدره المعهد الإسبانی العربی فی مدرید عام۱۹۶۴م تحت عنوان «اشعار حب عربیة»(Poemas amorosos Arauessy). کما ترجمت مؤسسه بروتا فی الولایات المتحده، وأدارPenguin البریطانیة للنشر مختارات من شعره فی انتولوجیا الشعر العربی الحدیث. علمته أسفاره الکثیرة أن یکون صدیق البحر، والأشرعة، والمسافات المفتوحة، وعلمه الشعر أن یکور قلبه کرغیف الخبز لیأکل منه کل أطفال العالم(المرجع نفسه: ۴۲). عرف *قبّانی* مآسی عدیدة فی حیاته، منها انتحار شقیقته لما کان طفلاً ومقتل زوجته *بلقیس* خلال تفجیر انتحاری فی بیروت، وصولاً إلی وفاة ابنه *توفیق* الذی رثاه فی قصیدته «الأمیر الخرافی توفیق قبانی». وقد عاش السنوات الأخیرة من حیاته فی لندن یکتب الشعر السیاسی ومن قصائده الأخیرة «متی یعلنون وفاة العرب؟» و«أم کلثوم علی قائمة التطبیع»، وقد وافته المنیة فی ۳۰آبریل ۱۹۹۸ودفن فی مسقط رأسه دمشق(بییر أبی صعب، صحیفة الأخبار اللبنانیة، العدد ۵۱۲).

عمله الدبلوماسی

عمل *نزار* فی السلک الدبلوماسی السوری ما بین العامین ۱۹۴۵ و ۱۹۶۶، فبدأ بوظیفته ملتحقاً بالسفارة السوریة فی القاهرة، وانتهی باعتزاله الدبلوماسیة، واقامته الطویلة فی بیروت. شاعراً محترفاً یرصد هموم المرأة والوطن والأمة. وما بین المحطتین کانت رحلاته الدبلوماسیة قد شملت اسطنبول، وهونغ کونغ، وروما، ولندن، واسکتلندا، وموسکو، وتایلند، والصین، وسان جرمان، وإسبانیا، وهولندا، وسویسرا، وونیس، ومونتی کارلو. ویقول *نزار* عن ترحاله الدبلوماسی المستمر وأثره فی تنمیة ملکته الفکریة والشعریة: «مع کل خطوة کنت اخطوها کان قلبی یکبر، وشبکیة عینی تتسع، وابار نفسی تمتلئ» والبدوی فی داخلی یرق ویشفُ ویتحضر»(بهیج، بی تا: ۲۹).

ویری بعض الذین تابعوا *قبانی* فی عمله الدبلوماسی انّه کان موظفاً حریصا علی واجبات الوظیفة، بعیداً عن التدخل فی الشؤون السیاسیة واضطراره الی أعمالها سریعاً بعد سقوطه، لم یعد یجرؤ علی تکرار التجربة مع الذین جاؤوا من بعده، وانکفأ الی ما قدر له من شعر الغزل، وحیاة الوظیفة الرتیبة(فاضل،۲۰۰۰م: ۱۴س). ویبدو أنّ الحیاة الدبلوماسیة أثرت کثیراً علی علاقته مع الأنظمة والأفراد، لذلک لوحظ انّه کان یتبع معهم

سياسة التخفی والدبلوماسية السريّة وإذا حدث أن حمل يوماً على وزارات الإعـلام العربيـة مثلاً، ثم التقی بعد حملته تلک بإحدی الوزارء الاعلاميين، فإنّه لم يكن يحرَج اذا قـال لـه هامساً: «مش انت المقصود، غيرک»(المرجع نفسه: ۳۲).

وخصّ الشاعر تجربته الدبلوماسية فی الصين بأجزاء من أحاديثه الصحفية فوصفها بأنّها كانت من اقسی التجارب علی روحه لما أورثته وإياه من حزن وكآبة، دفعته إلـی الإنطـواء علی ذاته، وساعدته علی تقمّص جسد امرأة شـرقية محاصـرة بأسـوار التـاريخ، وسـكاكين القبيلة، فكتب مجموعته الشعرية«يوميات امرأة لا مبالية»(صبحی، ۱۹۹۹م: ۲).

نزار بعد النكسة

فی ظل تلک الظروف اندفعت الأقلام إلـی كتابـة القصـص والمقـالات، وإذا اعتبرنـا أن الشعر هو الجانب الأهم فی هذه الدراسة فيمكن رؤية ردود أفعـال مختلفـة مـن الشـعراء، منهم من كتب بيأس وحمل الشعب العربی والحكام العرب الذنب فی الهزيمة التی قصمت ظهر العرب. ومنهم من هرب من واقع الهزيمة ونفی عـن العـرب أن يكـون لهـم يـد فـی الهزيمة. وكان *نزار قبانی* من النوع الاول، قصيدة «هوامش علی دفتر النكسة» التی كتبهـا بعد النكسة مباشرة خير دليل علی ذلک:

انعی لكم يا اصدقائی اللغة القديمة والكتب القديمة
انعی لكم كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر والهجاء والشتيمة
انعی لكم... انعی لكم
نهاية الفكر الذی قاد الی الهزيمة

(قبانی،۱۹۸۱: ۷۱)

قد لا يلاحظ البعض أثر النكسة فی شعر *نزار*، وهو ما نبحثه فی هذا الفصل، لكـن مـن لا يتتبع سطور *نزار* فحسب بل ما ورائها يجد أنه و مع كونـه كتـب فـی بداياتـه الشـعرية «خبز وحشيش وقمر» و«حبلی» و«أوعية الصـديد»، الا نـه كتـب «هـوامش علـی دفتـر النكسة» وما تبعها بعد ذلک بوعی قومی اكبر واعمق وحس كبيـر بمسـؤليته عـن كشـف الدمامن والقروح التی تختبیء تحت الجلد العربی:

یا وطنی الحزین حولتنی بلحظة
من شاعر یکتب شعر الحب والحنین لشاعر یکتب بالسکین
اذا خسرنا الحرب... لاغرابة لاننا ندخلها
بکل ما یملکه الشرقی من مواهب الخطابة
بالعنتریات التی ما قتلت ذبابة لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة

(قبانی،۱۹۸۱: ۷۲)

رؤیة *نزار* تنبع من زاویه ان العرب فی هذا الموقف العسیر، لم یستوعبوا الموقف من جراء وقوفهم وقفة رجل واحد، بینما هم- وا أسفاه- لم یتضامنوا الا من خلال الخطب والتصریحات:

ما دخل الیهود من حدودنا وانما
تسربوا کالنمل... من عیوبنا

(المرجع نفسه: ۷۳)

وکانت عائدات النفط العربی تهدر علی طاولات القمار والنساء فی امریکا و اوروبا، وقد استفاد العرب من النفط فی کل شیء فکانت الأموال الطائلة التی یکسبونها تزید من انغماسهم فی اللهو والمجون، مما أبعدهم عن قضایاهم الاستراتیجیة الهامة. وعن ادراک خطورة الرأس المدبر وهم الصهاینة.

القضیة الفلسطینیة فی شعر نزار

«فی القرن الثامن عشر لم تکن الصهیونیة لتتجاوز تعلیق الیهود الروحی بنصوص التوراة وطقوس الاعیاد والاحتفالات الدینیة، وکانت دوافع عودة الیهود الی فلسطین دینیة محضة. ولکن بعض بناة الامبراطوریة فی الغرب وجدوا ان الاستعانة بالیهود عن طریق اثارة الشعور الدینی القومی بالرغبة فی العودة الی فلسطین یخدم مصالحهم فی الشرق الاوسط. وقد اطلق *نابلیون بونابرت* عام ۱۷۹۹م علی الیهود الورثة الشرعیین لفلسطین؛ وفی عام ۱۸۹۶م نشر *تیودور هرتزل* کتابه «الدولة الیهودیة»(کیالی، ۱۹۶۶: ۱۲و ۱۹).

الذی بلور الفکر الصهیونی وحدد معالم الطریق الصهیونی الی حل المشکلة الیهودیة. وقد کان اقدامه علی نشر کتابه ایذاناً ببدء جهوده الواسعة لانشاء الحرکة الصهیونیة العالمیة التی عملت فیما بعد علی قیام الدولة الصهیونیة. وقد اعلن المؤتمر الصهیونی الاول فی بال سویسرا عام ١٩٦٤م حق الامة الیهودیة فی استرداد فلسطین بعد ألفی سنة من التشرد وفی عام ١٩١٧م حصل الیهود علی وعد *بلفور* المشؤم بإنشاء وطن قومی لهم فی فلسطین.

وکانت اطماع الیهود کبیرة فلم تقتصر علی فلسطین بل کان فی مخططهم، الذی رسموه لدولتهم الاستیلاء علی شرق الاردن وعلی جبل الشیخ فی سوریا، وهو المصدر الرئیسی للمیاه فی فلسطین وعلی جنوب لبنان حیث منابع نهر الاردن ومجری نهر اللیطانی. وفی عام ١٩٤٨م اعلن قیام الدولة الصهیونیة علی الاراضی الفلسطینیة، وهو عام النکبة وقد امتدت المطامع الصهیونیة الی الضفة الشرقیة لقناة السویس، وحرص الصهاینة علی احتلال سیناء لفصل المشرق العربی عن مغربه ومنع قیام وحدة عربیة. لیستنهض بها العزائم ویحفز الرأی العام، فهو لایسعی لمحاربة العدو الخارجی فحسب وانما العدو من الداخل ایضاً وهو الشاعر الذی عاش لوطنه العربی تفرحه افراحه وتهزه وتبکیه مصائبه وآلامه»(میرفت، ٢٠٠٢م: ٨٦).

وهذا ما نجده فی قصائده وبشکل واضح فی القصائد التی أتت بعد الهزیمة والتی مس بها القضیة الفلسطینیة من بعید، فعلی سبیل المثال «الممثلون» التی کتبها فی العام ١٩٦٨م والتی یعرض فیها حال المدن العربیة واستبداد الحکام یحملهم مسؤولیة ضیاع فلسطین:

متی سترحلون؟ المسرح انهار علی رؤوسکم
متی سترحلون؟ والناس فی القاعة یشتمون... یبصقون...
کانت فلسطین لکم دجاجة. من بیضها الثمین تأکلون...
کانت فلسطین لکم قمیص عثمان الذی به تتاجرون طوبی لکم...
علی یدیکم اصبحت حدودنا من ورق
فألف تشکرون

(قبانی، ١٩٨٠: ١١٠)

ثم يتعقب اسباب هزيمة حزيران التى تبدأ من الصراع على طاولة زهر، وتنتهى بمقولة «إنا لله و إنا إليه راجعون». فى «حوار مع عربى اضاع فرسه» كتب عن خطب الهراء التى يلقيها العرب، وعن فلسطين والأراضى العربية التى تحررت بكلمات وعن المواعظ التى يلقيها خطباء الجمعة، وكان من الاجدى جعل الكلام سلاحاً من ورق لتحريرها:

لو يكتب فى يافا الليمون لأرسل آلاف القبلات
لو آن القدس لها شفة، لاختنقت فى فمها الصلوات
وما تجدى(لو ان...) ونحن نسافر فى المأسات
ونمد الى الارض المحتلة حبل شعرى الكلمات

(المرجع السابق: ۲۲۶)

وهو فى الخطاب يصور القمع الذى يمارسه بعض الحكام العرب على افراد الشعب، واعينهم التى يبثونها فى صفوفة وكم الأفواه والاعتقال ولو على سبيل الخطأ، واما اكثر الذين يلقون الخطب السامية عن فلسطين حيث يحسبها المرء ذكرى لايؤتى على ذكرها الا كل سنة فى مثل ذلک الوقت:

كنت اصغى كالوف البسطاء الطيبين لكلام البهلوان
وهو يحكى... ثم يحكى... ثم يحكى... مثل صندوق العجائب
وتذكرت فلسطين التى صارت حقيبة
ما لها فى الارض صاحب
كان فى حنجرتى ملح...
وحزنى كان فى حجم الكواكب
فأعذرونى، ايها السادة
ان حطمت صندوق العجائب

(قبانى، ۱۹۸۰: ۲۶۶)

وهو يلقى اللوم على امير المومنين الذى يلقى بالشعارات التى تخدر العرب بدل ان تحثهم على الجهاد فى سبيل الارض:

خدرونى...بملايين الشعارات...فنمت

فأرونی القدس فی الحلم...ولم اجد القدس، ولا احجارها
حین استفقت ایها السادة
انی وارث الارض الخراب
کلما جئت الی باب الخلیفة
سائلا عن« شرم الشیخ»...وعن حیفا...
ورام الله والجولان...اهدانی خطاب

(المرجع نفسه: ۲۷۱)

و«افادة فی محکمة الشعر» تظهر فلسطین مخضبة بدمائها والعرب یتباحثون فی القشور، ویأتون کل عام لیلقوا الشعر الذی اصبح فأر کسرة خبز. وقد استوت مکانة ذلک الشعر بمکانة الحذاء عند *نزار*، وقد یزاید الشعراء فی الکتابة عن فلسطین وإلقاء اللوم علی حزیران وکل من یکتب عن ذلک شریک فی الهزیمة. کل ذلک وفلسطین تنتظر الفرسان العرب لیعیدوها الی احضان الوطن العربی، و*نزار* یعانی بسبب التزامه بالوطن وحبه واخلاصه له:

یا فلسطین... لاتنادی قریشاً فقریش ماتت بها الخیلاء
لا تنادی الرجال من عبد شمس
لاتنادی لم یبقی الا النساء...
کم اعنی مما کتبت عذاباً
ویعانی فی شرقنا الشرفاء

(المرجع نفسه: ۴۰۵)

قد ألقی فی مهرجان الشعر بدمشق فی کانون الاول عام ۱۹۷۱م«من مفکرة عاشق دمشقی» وهو صاحب الشکوی الدائمة من العرب، یتسائل هل یشکو العروبة ام العرب الذین ادمنوا الهزیمة والاستسلام(لقضاء الله...)، واسندوا ظهورهم للتاریخ العربی الذی صنعه اجدادهم وعملوا علی النکوص والهبوط به، من درجة المجد الی السکوت علی المذلة وتحمل الهوان واستهتار العدو الإسرائیلی بهم وبقدراتهم علی استرجاع ارضهم.

و*نزار* یتنصل ممن دنسوا التاریخ العربی، ویطلب ان لایعاتب علی شعره لأن من یتذوق طعم العلقم لیس کمن یأکل السکر:

يامن يعاتب مذبوحاً... على دمعه
نزف شريانه، ما اسهل العتبا
من جرب الكى، لاينسى مواجعه
ومن راى السم، لايشقى كمن شربا
الشعر ليس حمامات نطيرها نحو السماء، ولا ناياً وريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره
ما اجبن الشعر، ان لم يركب الغضبا

(المرجع نفسه: ۴۴۲)

ونراه يركع ويصلى ويبكى على اعتاب القدس المدينة الجليلة، وقد احتلها اليهود وراحوا يضعون بصماتهم النجسة على مقدساتها وانتهكوا حرمة المسجد الاقصى وهى المدينة التى اجتمع فيها الانبياء، وهو المسجد الذى صلى فيه الانبياء ويتساءل *نزار* عمن سيعيد السنابل والغصون والضحكة فى العيون:

بكيت... حتى انتهت الدموع
صليت... حتى ذابت الشموع
ركعت... حتى ملنى الركوع
يا قدس... يا مدينة تفوح انبياء
يا قدس... يا مدينة الاحزان
يا دمعة كبيرة تجول فى الاجفان
من يوقف العدوان عليک، يا لؤلؤة الاديان
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟
يا قدس... يا حبيبتى
غداً...غداً... سيزهر الليمون
و تفرح السنابل الخضراء والغصون

(المرجع نفسه: ۱۶۱)

ونجده فی «شعراء الارض المحتلة» یقتدی بهم فی المقاومة بالقلم، ویطلب منهم أن یعلموه مع الکتاب الاخرین کیف یحولون القلم الی سکین والوردة الی لغم، وهو یتمنی أن یصبح الشعراء فی مکانتهم، فالشاعر العربی یعمل فی قصر الحاکم ویکتب من اجله لا من اجل قضایا العرب:

شعراء الارض المحتلة
یا اجمل طیر یأتینا من لیل الاسر نتعلم منکم
کیف یغنی الغرق فی اعماق البئر
نتعلم کیف یکون الشعر
الشعر ادینا درویش
یترنح فی حلقات الذکر
الشاعر یعمل حوذیاً لأمیر القصر
ما زلنا منذ حزیران... نحن الکتاب
نتمطی فوق وسائدنا
نلهو بالصرف وبالاعراب
وننادی: یا رب الارباب
نحن الضعفاء... وانت المنتصر الغلاب
شعراء الارض المحتلة

(قبانی، ۱۹۸۰: ۱۵۳)

صورة المقاوم الفلسطینی فی شعر نزار

کان *نزار* منفعلاً بمحنة المقاوم الفلسطینی الذی یعرف سلفاً ان السبیل الوحید امامه لاسترجاع أرضه فی سبیل الشهادة. وقد خلف *نزار* فی هذا الصدد اعمالاً تمس هذه النقطة مباشرة: «فتح، عرس الخیول الفلسطینیة، منشورات فدائیة علی جدران اسرائیل...» وتأتی «فتح» والتی کتبت عام ۱۹۶۹م، لتمثیل ماکانت تنبض به القلوب فی هذه الفترة من احساس عارم بالمحنة اذا کانت اصداء هزیمة ۱۹۶۷م، لا تزال ماثلة امام العیون ومع ذلک

لم يكن هناک مناص من المقاومة، تلک المقاومة التی ينبغی ان تنبعث من ثنايا الارض المحتلة، ومن صميم الشعب الذی نكلت به الصهيونية والهزائم العربية المتتالية(ميرفت، ۲۰۰۲م: ۱۱۵).

وفی ظل تلک الملابسات تأتی قصيدة «فتح» لتجسد صورة المنقذ والاب الحامی، فإذا به يتماهی بالمقاومة الفلسطينية، وبالفدائيين العرب وبشعراء الارض المحتلة، لأنهم بنظره المثال فی مواجهة الاعداء. انبثقت فتح كوردة من بين الاشواک الاسرائيلية، لتعيد ماء وجه العرب وان فرحة *نزار* لكبيرة حتی لو تأخرت كما هی فرحة العرب، فبعد العطش يكون للماء طعم اطيب، فالمقارمون ينبعون كالماء. ويأتون من كل شی ء من شجر الزيتون، من الحزن والكبرياء ومن الصخر، ولكن المهم انهم اتوا وفلسطين تنتظرهم:

جاءت الينا فتح

كوردة جميلة طالعة من جرح...

كنبع ماء بارد يروی صحاری ملح

وفجأة... ترانا علی اكتافنا، وقمنا...

و فجأة كسيد المسيح... بعد موتنا نهضنا...

ولم يزل خنجر اسرائيل فی ظهورنا

(قبانی، ۱۹۸۰: ۱۴۰)

نزار يعتزب فتح لأنه يؤمن بما اخذ بالرصاص يسترد بالمدافع، وان الحكم والامثال لا تفيد سوی فی استمرار الضياع وازدياد الغباء، كما سنری فی قصيدته «طريق واحد». لاشک ان عذاب الشاعر سيكون كبيرا حينما يطل عليه هذا الصباح الكئيب، الذی يأتی بفجيعة تلک المذبحة المروعة لرموز المقاومة الذين كانوا ينبضون. بالاصرار والارادة، ومن جمعوا بين النضال والطاقة الادبية ذات التأثير العميق، واعنی بهم «*كمال ناصر* و*كمال عدوان ابی يوسف النجار* وزوجته». وقد كان وقع اغتيالهم علی *نزار* شديداً فكتب «عرس الخيول الفلسطينية» حيث صور من خلالها حزنه الشديد عليهم وصدمته الكبيرة لإغتيالهم وهم رفاق الكلمة، وهم من جمعوا بين المقاومة بالكلمة والمقاومة بالسلاح وقد زفت الخيول الی الشهادة فی عرس مهيب:

بشارع فردان كانت تموت الخيول الجميلة

بصمت...يقولون: ان الخيول بفطرتها
تعانى من العشق ايضا
وتعرف معنى الفراق ومعنى الشجن
وتقرأ احسن منا جميعاً كتاب الوطن

(قبانی، ۱۹۸۰: ۲۰۱)

وأتت «منشورات فدائية على جدران اسرائيل» لتعبر عن الرفض والتحدى والصمود فی وجه الاحتلال الاسرائيلی و ذلک علی لسان افراد الشعب الفلسطينی، فهذا الشعب مصر علی البقاء فی ارضه ومتشبث بجذوره حتی لو کان ثمن ذلک الدم:

لن تجعلوا من شعبنا
شعب هنود حمر
فنحن باقون هنا...
فی هذه الارض التی تلبس فی معصمها
اسوارة من زهر...
فهذه بلادنا
فيها وجدنا منذ فجر العمر

(قبانی، ۱۹۸۰: ۱۶۷)

ومن ثم تابع بلسان المناضلين الفلسطينيين الذين يتحدون اسرائيل، ويتمسكون بجذورهم ويدعون الاسرائيليين الا يفرحوا بالنصر الموقت فالحق لابد ان يعود لأصحابه، فالمناضلون سيظهرون لاسرائيل فی کل شی، فی المطارات ومن خلف التماثيل وفی غضب الرعد ليقضوا مضجعهم ويقضوا علی آخر فرد منهم. ونساء فلسطين يحملن أطفال الشهداء وان کانت اميرکا فی صفهم وتسعی سعيهم وفی العدوان علی الارض والانفس فإن الله اکبر من کل شیء. وان استهانت بقدراتنا فليس الکبر هو الذی يصنع النصر إنما قد يکون صاحب الحق وان کان صغيراً اقوی، فالاصرار والصمود والتشبث بالارض قد يأتی بطاقة خارقة لا تحسب امريکا لها حساب:

ما بيننا.... وبينکم.. لاينتهی بعام
طويلة معرک التحرير کالصيام

ونحن باقون على صدوركم كالنقش فى الرخام
موعدنا حين يجى ء المغيب
موعدنا القادم فى تل ابيب
نصر من الله و فتح قريب

(قبانى، ۱۹۸۰: ۱۸۲)

وهو واثق من أن النصر سيكون حليف الفلسطينين وإن طال ذلک. لقد ختم *نزار* الجزء الرابع عشر من القصيدة بالآية القرآنية: «نصر من الله و فتح قريب» وذلک ليحفز المناضلين على الاستمرار فى المقاومة، وليطمأن قلوبهم من ان الله معهم وسينصرهم عما قريب، وفى المقطع السابع عشر قدم شرحاً لآية أخرى دون أن يثبتها بالنص:

وجاء فى كتابه تعالى
بأنكم من مصر تحرجون...
وانكم فى تيهها سوف تجوعون وتعطشون
زدنا على ما قاله تعالى، سطرين اخرين
بقوة السلاح تخرجون...

(قبانى، ۱۹۸۰: ۱۸۵)

و*نزار* شديد الاعتزاز والثقة بالفلسطينين المقاومين، فقد كان لفترة يطالب بحقوقهم لدى الامم المتحدة، لكن عندما صمم أن يطبق مقولة ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالسلاح، زيت سلاحه وأخرج حصانه وانطلق يناضل ويدفع دماً فى سبيل الوطن دون حساب:

نأتى... لكى نصحح التأريخ والاشياء...
و نطمس الحروف فى الشوارع العبرية الاسماء

(المرجع نفسه: ۱۹۸)

وتأتى قصيدة «طريق واحد» على خطا سابقتها «منشورات فدائية على جدران اسرائيل» وبعدها بعام ونيف. وقد كان لقصائد *نزار* والحق يقال دور كبير فى شحذ الهمم وتأجيج نار المقاومة وتحفيز النفوس على النضال والصمود فى وجه اليهود، واصبحت تتردد على كل لسان وتهرب من بلد الى بلد وكأنها منشورات سرية:

اصبح عندى الان بندقية...

الی فلسطین خذونی معکم
الی ربی حزیناً کوجه مجدلیة
ابحث عن بیتی الذی هناک
عن وطنی المحاط بالاسلاک
الی فلسطین
خذونی معکم. یا ایها الرجال
ارید ان اعیش او اموت کالرجال

(المرجع نفسه:۳۲۸)

اطفال الحجارة فی شعر نزار

«وتأتی حرب تشرین التحریریة فی عام ۱۹۷۳م لتحریر جزء من الاراضی العربیة. لکن الجزء الاکبر بقی فی قبضة الیهود ولم یتحرر فی فلسطین حتی شبر واحد. وقد امتلأت نفس *نزار* کما باقی الادباء بالغبطة والفرح؛ إذ استعادوا قسطاً من الکرامة العربیة باستعادتهم جزء من أرضهم، لکن شاعرنا ینتمی للذات العربیة ومن الصعب علیه ان یقتلع جذوره العمیقة المتغلغلة فی ذاته.

وفی ضوء هذا الفهم ندرک لماذا یعود الی هجاء العرب والعروبة اذا لمس الی أی مدی استسلموا للتخاذل والخنوع ولسنوات طویلة، وفی ظل تلک الکآبة والاحباط والیاس نجد ان *نزار* یتجه الی الجیل الجدید، جیل اطفال الحجارة الذین انبثقوا من الصخور لیحاربوا اسرائیل بحجارتهم الصغیرة.

و ذلک بعد ان اتجه إلیهم فی أواسط الخمسینیات، وعلق الآمال علیهم لیستعیدوا الأرض والکرامة العربیة معها، فی قصیدة «راشیل شوار زنبرغ» التی کتب فیها قصة یهودیة مجندة کانت سجینة الالمان، وعندما اعلن عن قیام الدولة الاسرائیلیة علی الاراضی الفلسطینیة ابحرت مع لفیف من الیهود وجاءوا الی الاراضی العربیة فلطخوا التراب واعدموا النساء ویتموا الاطفال»(میرفت، ۲۰۰۲م: ۱۲۰):

اکتب للصغار
للعرب الصغار حیث یوجدون

فليذكر الصغار

العرب الصغار حيث يوجدون

(قبانی، ١٩٨٨: ١٢٧)

ف*نزار* يطالب الصغار ان يثأروا من اليهود، الذين ارتكبوا ابشع المذابح والانتهاكات بحق الشعب الفلسطينی:

اختی ما زال جرحها الطليل

ما زال بانتظار

نهار ثأر واحد...

علی يد الصغار

جيل فدائی من الصغار...

(المرجع نفسه: ١٣٤)

وإن من لا يصمد امام كل تلك الانتهاكات، مصيره القتل امام اعين اقربائه وافراد عائلته فالذی يتكلم يعلم ثمن ما يقوله سلفاً:

ومات والدی الرحيم

بطلقة سددها كلب من الكلاب

فی الموطن العظيم

وكفه مشدودة شداً الی التراب

الآن فی انتظارهم معركة التراب

(المرجع نفسه: ١٣٨)

وبالعودة إلی أطفال الحجارة الذين انكفأ *نزار* اما بطولاتهم وتنكر للذات المبخسة، واعتراف بالقصور امام بطولاتهم، واندفع يترجم رفضه للواقع الدنیء الذی نعايشه فأصبح يتباهی بأطفال الحجارة الذين جسدوا له المثل الاعلی، وكأن الاطفال هم اباء للرجال يتعلمون منهم القتال والنضال وقد نسب القصائد الثلاث التی نشرها فی ديوان صغير «ثلاثية أطفال الحجارة» إليهم:

هذه القصائد الثلاث

كتبها اطفال الحجارة
بأصابعهم الصغيرة النحلية الدامية
ولم اكتلها انا...
هم الذين كتبوا...
وهم الذين الفوا
وهم الذين نزفوا
وهم الذين امرونى، فأطعت...
وحرضونى فصرخت...

(المرجع نفسه:١٩)

وقد سجل لهم الكثير من الاعترافات؛ فهم أسياد الكلمة فى هذه المرحمة وهم من اخترعوا نوعاً جديداً من الكتابة بأحجارهم الصغيرة وحبرهم، وكانت دماؤهم تروى الارض، وهم من قرروا أن يتولوا مشاكلهم على طريقتهم دون الاعتماد على سادة الخطابه الذين ينتظرون الفرج من الله، وهم من غيروا تضاريس القصيدة ونقلوها نقلة نوعية من الثلاجة الى الفرن واوقدها يحطب التخاذل والضعف والادعاءات الكاذبة:

أطفال الحجارة بهرو الدنيا
وما فى يدهم الا الحجارة...
واضاؤوا كالقناديل
وجاؤوا كالبشارة
قاوموا ...وانفجروا ...واستشهدوا ...

(قبانى، ١٩٨٠: ٢٠-٢١)

وهو فى «الغاضبون» يناشد تلاميذ غزة أن يعلموا الرجال أن يكونوا رجالا وان لايألوا لإذعانات الكبار، وأن لا يتقاعسوا بل يستمروا فى الضرب فان الرجال هربوا من مسؤوليتهم تجاه وطنهم، واختبؤوا فى الجحور لئلا يحملوا السلاح ويحرروا أرضهم. ويطلب منهم أن يعلموا الناس كيف يتشبثون بالوطن ويريقوا دمائهم فى سبيله وهو يبشرهم بان ثورتهم

لن تذهب سداً، ويطمأنهم بأن اليهود سيخرجون من فلسطين وما يزيد من جبـنهم أنهـم مغتصبون وليسوا أصحاب حق:

يا تلاميذ غزة ...
علمونا ...
بعض ما عندكم
فنحن نسينا ...
علمنا ...
بان نكون رجالاً
فلدينا الرجال

(المرجع نفسه: ۲۷)

ولابد من التنويه الى القصيدة الثالثة فى ديوان «دكتوراه شـرف فـى كيميـاء الحجـر» التى عرض فيها الإنتصارات التى يحققها الأطفال، فهم صـنعوا وطنـاً جديـداً وقلبـوا أوراق التاريخ وأنهوا عصر المتعاطين لحشيشة الخوف والـذعر، فـالزيتون اثمـر وثبـت فـى أرض اطفال الحجارة المساكين يسقطون جرحى يسقون الأرض بدمائهم ويحملون نور الفجر فى عيونهم، هولاء الأطفال الشياطين بأفعالهم، الملائكه بطهارتهم وعزيمتهم، هم انبياء الفـرج الذين سيخرجون فلسطين من رحم الأحزان:

يرمى حجراً ...
او حجرين
يقطع افعى اسرائيل الى نصفين
يرمى الحجر الثالث
تطلع رام الله بنفسجه من ليل القهر
يرمى الحجر العاشر
حتى يظهر نور الفجر

(قبانى، ۱۹۸۰: ۴۳)

فی النهاية نلحظ بشیء من الدهشة بأن شاعرنا لم يتطرق إلى المرأة الفلسطينية المناضلة على الإطلاق، ولعل منطق الاشياء أنه سيكون اول من يكتب عن استشهاد حياة البليسی ورحاء *ابو عماشة* و*شادية ابو غزالة* و*سهيلة الكعبی* و*سحر الجرمی* و*مثال سمور* وكثر من المناضلات اللاتی اعتقلن خلال الانتفاضة ومن بينهن عبير الوحيدی التی ما زالت فی السجون الاسراييلية، ويشيد بهن كما اشاد بالأبطال وبأطفال الحجارة لماذا لم يتطرق *نزار* الی ذكرهن؟(نضال، ۱۹۹۵: ۱۲۸)، ولم وهو الذی ارتبط تاريخه بشكل اساسی بالمرأة؟ حسب رأيی المتواضع أظن أنه قد فاته ذلک ولكم تمنيت أن يكون *نزار* رحمه الله حياً لما سألنا هذا السؤال و ولاستشففنا منه السبب.

النتيجة

إن *نزار* سيبقی قيثاره للشعر العربی الجميل، لأنه صوت عصرنا الراهن من دون جدال؛ صوت النزال والجمال والإبداع ومحبة الإنسانية جمعا؛ إنه شاعر عربی، شاعر الأمة العربية جعل من القصيدة فارسا من فرسان العصر خاض معاركه بلا هوادة. فانتصر ومعه انتصر الشعر على كل من (عداه= سواه) عاداه. *نزار قبانی* تلک القيثارة الشجية التی عبرت عن مشاعرنا الوجدانية على مدى نصف قرن وجسد القضايا العربية فی الانتصارات والانكسارات فكان بحق شاعر السياسة والحب والحرية.

المصادر والمراجع

ابوشاهین، سامی. ۲۰۰۸م. **الغزل فی شعر نزار قبانی**. بیروت: دارالفکر العربی.
بهیج، عبدالله. لا تا. **اصالة العروبة فی ادب نزار قبانی**. بیروت: دارالنشر.
جهاد، فاضل. ۲۰۰۰م. **نزار قبانی الوجه الآخر**. بیروت: موسسة الانتشار العربی.
صبحی، محی الدین. ۱۹۹۹م. **صداقتی مع نزار قبانی**. کویت: الفکر العربی.
عکاری، سوزان. ۲۰۰۲م. **نزار قبانی یغزل المرأة**. بیروت: دارالفکر.
قبانی، نزار. ۱۹۸۱. **الأعمال السیاسیة الکاملة**. ج ۳. بیروت: منشورات نزار قبانی.
ـــــــــ ۱۹۸۰. **الأعمال الشعریة الکاملة**. ج۱. بیروت: منشورات نزار قبانی.
ـــــــــ ۱۹۸۸. **ثلاثیة أطفال الحجارة**. بیروت: منشورات نزار قبانی.
کیالی، عبدالوهاب.لاتا. **الأدب العربی المعاصر فی سوریة**. مصر: دارالمعارف.
میرفت، دهان. **نزار قبانی و القضیة الفلسطینیة**. ۲۰۰۲م. مصر: مرکز النشر.
نضال، محمد الهندی. ۱۹۹۵م. **اضواء علی نضال المرأة الفلسطینیة**. عمان: دارالکرمل.

المقالات

بییر، أبی صعب. نیسان ۲۰۰۸. «**نزار قبانی شاعر الغوایة و الغضب السیاسی**». صحیفة الأخبار اللبنانیة. العدد ۵۱۲.
فضل، صلاح. «**نزار قبانی و مدیح النساء**». الکویت: العدد۱۷۹.